

سورة سبا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝ ﴾

مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ : ما يدخل فيها من مطر وغيره .

وَمَا يَعْرُجُ : ما يصعد من الملائكة والأعمال .

إن الكون دليل خالقه المبدع ، فأتساعه الرهيب يدلنا على عظمة الخالق ، وكونه على
أتم درجة من التناسق والانسجام يعرفنا بأن مبدعه وجود كامل متكامل ، وكون
أجزائه كلها تسير وتؤدي وظائفها بمتتهى التوافق ، بحيث لا يقع في سيرها أدنى خلل
أو اضطراب أبداً ، يبرهن على أن القائم بإدارته وتدبير شئونه ذو حكمة وعلم لا
ينتهيان . وكونه ملائماً للإنسان إلى الحد الأقصى ، مما يوضح أن خالقه كريم ورحيم
بمخلوقاته بلا حدود ، والذي يتأمل في الكون بجديّة وإمعان سوف لا يلبث أن يغمره
شعور عارم بجلال الله وكماله ، وسوف يخرج من تأملاته مقتنعاً اقتناعاً لا يمازجه شك
أن كل الأبعاد ومظاهر العظمة والكبرياء ، من الأزل حتى الأبد ، إنما هي لله الواحد
الأحد ، الفرد الصمد ، وليس هناك من أحدٍ غيره يستحق شيئاً منها على الإطلاق !!

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيََكُمُ الْعَذَابُ لَا
يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ

إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ لَيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ
مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن
رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٣﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٤﴾

وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ : لَا يَغِيبُ عَنْهُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ .

مِنْقَالُ ذَرَّةٍ : مقدار أصغر نملة أو هباءة .

مُعَاجِزِينَ : مسابِقِينَ طَائِفِينَ أَنَّهُمْ يَفُوتُونَنَا .

مِنْ رَّجْزٍ : أَشَدَّ الْعَذَابِ وَأَسْوَأُهُ .

إن مخاطبي القرآن الكريم لم يكونوا منكرين للقيامة ، وإنما كانوا منكرين لأن القيامة
ستكون بالنسبة إليهم خزيًا أبدياً وعذاباً سرمدياً لا يزول ، إذ كانوا يجدون أنفسهم
آمنين من الناحية المادية ، في هذا العالم الراهن ، مما جعلهم يستبعدون كيف سينعكس
حالمهم ؛ فيعودون غير آمنين إذا دخلوا العالم الآتي ؟!

بيد أن هذا القياس باطل من أساسه ؛ فدراسة العالم الراهن تدلنا على أنه مؤسس
على مبادئ أخلاقية خالدة ، ومنذ أن كان الكون قد تم إنشاؤه على الأساس الأخلاقي ،
فلا بد إذن ، أن يتقرر مصيره النهائي هو الآخر على الأساس الأخلاقي ، وليس على أي
أساسٍ مزعومٍ آخر .

وإن حقيقة الحياة والكون هذه الموجودة في كل الكتب السماوية ، ورسالة القرآن
تلخص في إظهار هذه الحقيقة بشكلها الخالص النقي من كل شائبة ، والآن فالذين
يتصدون لمعارضتها ، هم يرتكبون خسارة جد عظيمة ؛ يستحقون عليها عند الله أشد

العذاب .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٠﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿١١﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ نَشْأَ نُخْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿١٢﴾ ﴾

مُرِّقْتُمْ : قطعتم وصرتم رفاتا وترابا .

بِهِ جِنَّةٌ : به جنون يوهمه ما يقول .

نُخْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ : نغيب بهم الأرض كقارون .

كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ : قطعا منها كأصحاب الأيكة .

مُنِيبٌ : راجع إلى ربه بالتوبة والطاعة .

كان أهل مكة ينظرون إلى الرسول وأصحابه نظرة احتقارٍ وازدراء ؛ دفعتهم إلى تناول كل ما يقولون بالسخرية والاستخفاف ، والسبب الحقيقي في ذلك كان يرجع إلى عدم تيقنهم من الآخرة . إن قلوبهم كانت خاوية من رهبة المؤاخذه في الآخرة ؛ مما جعلهم ، بطبيعة الحال ، لا يأخذون الأحاديث المتصلة بشأن الآخرة بالكثير أو القليل من الجدّية .

وإن أكبر عذاب يلقيه أحد في هذا العالم هو أن يُحرَم من صحة الفكر ، فإن شخصا كهذا لا يتمكن من رؤية شيء ما في صورته الصحيحة ، ولا يوفق للاعتبار حتى بالحقائق الواضحة الصارخة ، وعلى سبيل المثال : لا تزال تتجه من جانب الفضاء

العلوي أحجار لا تُحصى نحو الأرض بسرعة فائقة ، ولو بدأت هذه الأحجار تنهال على المساكن الإنسانية ؛ لهلك الجيل البشري عن آخره في غضون أيام معدودات . وهكذا يتكون الجزء الأكبر من باطن الأرض من مواد مصهورة شديدة الحرارة (اللافا) ؛ لو أنها انفجرت يوماً على نطاق غير محدود ، لاحترق كل شيء على وجه البسيطة واستحال رماداً ..

غير أن الله - سبحانه وتعالى - قد اتخذ في هذا الكون تدابير خصوصية تحول دون وقوع كارثة شاملة كهذه . وإن السماوات والأرض تزخر بأمثال هذه الآيات البينات التي تدل على مدى عجز الإنسان ، ولكن المرء إذا حُرِمَ صحة التفكير ، لم تعد أية آية ، مهما كانت صارخة الدلالة عميقة المغزى ، تهديه إلى الصراط المستقيم .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يٰجِبَالُ اُوبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ؕ اَلنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ اَنْ اَعْمَلَ سَبِيغًا وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَاَعْمَلُوا صٰلِحًا اِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيْرٌ ﴿١١﴾ ۝ اُوبِي مَعَهُ : سبجي أو راجعي معه التسبيح .

اعْمَلْ سَابِغَاتٍ : دروع واسعة كاملة .

وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ : أحكم صنعتك في نسج الدروع .

إن المؤمن حين يسبح لله ؛ وهو مستغرق في ذكره تعالى ، فإنه يتناغم في ذلك الوقت مع الكون كله ؛ حيث يتجاوب كل شيء في السماء والأرض معه في نغمات التسبيح الإلهي ، بيد أن تجاوب الكون هذا يكون ، بالنسبة إلى عامة المؤمنين ، بلسان الصمت .

أما سيدنا داود - عليه الصلاة والسلام - فقد اختصه الله سبحانه بأنه إذا رفع عقيرته بالتسبيح ، أخذت الجبال والطيور في ترديد تسابيحته على نحو محسوس مسموع .. كما علّم الله - سبحانه وتعالى - نبيه داود صناعة الحديد ، فقام - عليه

الصلاة والسلام - بتطوير فن إذابة الحديد وصوغه إلى حد أنه بدأ يعمل الدروع الخفيفة ذات الحلقات المتناسبة المتناهية في الدقة ؛ بحيث يتمكن المرء من أن يلبسها كما يلبس الثوب. ولم يكن هذا الفن قد ظهر في العالم إلى يومه ذاك، وإنما علمه الله إياه عن طريق الملائكة مباشرة .

والمؤمن يستطيع أن يبلغ أعلى درجات التطور والرقى في مجال الصناعة والعلوم ، ولكن يجب عليه أن يحصر استعمال التقدم الإنساني في دائرة الإصلاح وحده ، وأن يفعل ما يفعل آخذاً بعين الاعتبار دائماً أنه سيحضر في نهاية المطاف بين يدي ربه للحساب !!

﴿وَلَسْلَيْمَنَ الرِّيحِ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّخْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ ﴿١٣﴾ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٤﴾﴾

غُدُوُّهَا شَهْرٌ : جريها بالغداة مسيرة شهر .

وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ : جريها بالعشي كذلك .

عَيْنَ الْقَطْرِ : عين النحاس فنيع ذاتها كالماء .

يَزِغْ مِنْهُمْ : يمل ويعدل منهم .

مِن مَّخَارِبَ : قصور أو مساجد .

وَتَمَائِيلَ : صور مجسمة من نحاس وغيره .

وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ : ثابتات على المواقد لعظمها .

لقد قام سليمان - عليه السلام - بتطوير السفر البحري والتجارة البحرية إلى حد كبير جداً، بحيث أعد السفن الشراعية من الطراز الأعلى، هذا إلى جانب ما أنعم الله به عليه من جعل الرياح تجري وفق ما تشتهي سفنه البحرية في أكثر الأحيان. كما تطور في عصره فن إذابة النحاس وتحويله إلى ضروب الأواني والأمتعة تطوراً عظيماً. وقد كان سليمان - عليه السلام - يستخدم هذه المواهب والقوى غير العادية في شتى الأعمال البنائية والإصلاحية، بما فيها صناعة تلك الأشياء التي ورد ذكرها ضمن الآية الأخيرة. إن الإنسان غارق في نعم الله تعالى من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ولذا ينبغي أن تشغل عاطفة الشكر لله والثناء عليه الحيز الأكبر من وجوده وحياته، ولكن هذا هو الشيء الذي لا يوجد لدى الإنسان بمقدار أقل ما يكون.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ١٥ ﴾

دَابَّةُ الْأَرْضِ: الأرضة التي تأكل الخشب.

تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ: تأرض عصاه.

كان سيدنا سليمان متوكئاً عصاه يراقب الجن يشتغلون ببعض الأعمال الإنشائية؛ إذ وافته منيته، فقبض ملك الموت روحه، ولكن جسده الهامد الميت مازال قائماً على عصاه كعهده، فظل الجن مشغولين في عملهم، وهم يظنون أنه - عليه السلام - جالس بالقرب منهم يشرف عليهم كعادته، وبعد ذلك وقعت الأرضة في عصاه، فأكلتها حتى نخرت، فسقط جثمانه على الأرض، وعندها أدرك الجن أنه قد مات منذ مدة من الزمان!! ولعل هذه الواقعة أن تكون قد وقعت بهذا الشكل لتقوم دليلاً عملياً

على بطلان عقيدة الناس القائلة بأن الجن يعلمون الغيب !

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿٤﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ
وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ
جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَافُورُ ﴿٦﴾﴾

لِسَبَإٍ : حي بمأرب باليمن .

لَايَةٌ : على قدرتنا أو عبرة وعظة .

جَنَّتَانِ : بستانان أو جماعتان من البساتين .

بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ : زكية مستلذة .

فَأَعْرَضُوا : عن الشكر أو كذبوا أنبياءهم .

سَيْلَ الْعَرِمِ : سيل السد أو المطر الشديد .

أُكُلٍ خَمْطٍ : ثمر مر حامض بشع .

وَأَثْلٍ : ضرب من الطرفاء .

سِدْرٍ : الضال أو شجرة النبق .

كان السبئيون من أرقى الشعوب المتمدنة في قديم الزمان ، وكانت مساكنهم باليمن الحالية ، وقد اتخذوا من مدينة مأرب عاصمةً لدولتهم ، ولقد استطاع هؤلاء إحرار تقدم حضاري كبير جداً في عصر ما قبل المسيح ، وظلوا حوالي ألف سنة في قمة المجد والازدهار ، حيث إنهم كانوا قد بسطوا نفوذهم التجاري براً وبحراً ، وقاموا بإنشاء السدود والخزانات وفق تصميمات هندسية دقيقة . وقد كان لهم قرب مأرب سد كبير

كان يبلغ ارتفاعه ١٤ متراً طوله نحو ٦٠٠ متر؛ حصروا داخله مياه الجداول والممرات الجبلية، واستخرجوا من شتى جوانبه قنواتٍ منسّقة متعددة الاتجاهات لسقي المزارع وإرواء الأراضي المرتفعة. وهكذا أضحت بلادهم تتدفق حيوية ونضارة وخصوبةً لدرجة أن المرء أينما توجه ببصره، تراءت له عن يمينه وشماله سلسلة حدائق غناء وبساتين رائقة المنظر لا تكاد تنتهي.

وإنما أمكنهم إحراز كل هذا التقدم بسبب التدابير الإلهية؛ ولذا كان ينبغي على السبئيين أن يكونوا شاكرين لله المنعم الوهاب. ولكنهم لم يلبثوا أن وقعوا ضحايا الغفلة والطغيان كما يكون حال الأمم الغنية السعيدة في الأعم الأغلب. وقد أخذ سد مأرب بعد ذلك يحدث فيه من حين إلى حين ثقوب وتصدعات، وكان ذلك بمثابة تحذيرٍ أولى من الله، إلا أنهم تهادوا في غفلتهم ولم يعودوا إلى رشدٍ، حتى انكسر السد - كما تقول دائرة المعارف البريطانية - على إثر زلزال في أواخر القرن السادس الميلادي، إلى حدٍ لم يعد معه أمل في إصلاحه وترميمه، مما أسفر عن سيلٍ عارمٍ جبار لا يقف دونه شيء، خرّب المنطقة من أقصاها إلى أقصاها، يضاف إلى ذلك أن هذه المنطقة بعد ذلك - لانعدام التربة ذات الخصوبة من أراضيها - لم تعد تصلح لشيء سوى الأحرش والنباتات البرية!!

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَهَرَ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَيَأْمَأْءَ آمِنِينَ﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٦٠﴾

القرى : قرى الشام .

قرى ظاهرة : متواصلة متقاربة .

وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ : جعلناها على مراحل متقاربة .

فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ : أخبارًا يتلهى به ويتعجب منه .

وَمَرَّ قَتَاهُمْ : فرقناهم في البلاد .

المراد بالقرى المباركة منطقة الشام الناضرة الخصيبة ، فقد كانت هذه المنطقة تمتد في رحابها طوابير متلاحقة من مستوطنات جميلة رائعة من قلب اليمن حتى الشام . وبذلك كان السفر من خلالها قد صار نوعاً من النزهة اللطيفة الممتعة . وقد كانت هذه البيئة ، باعتبار حقيقتها ، مثيرة للعواطف الربانية ، وكأننا نصب الله ، ثمة يافطة صامته تقول : امشوا هنا آمنين من كل خطر ، واشكروا لربكم !

غير أن السبئين الغافلين لم يتمكنوا من قراءة هذه اليافطة الإلهية ، وبالتالي فقدوا بمسلكتهم العملي الشائن ذاك استحقاقهم لتلك النعم الجليلة ، فبادوا واندثرت آثارهم بحيث أصبحوا قصة تحكى وحديثاً يُروى ؛ إذ نزلت قبائلهم بعد خراب المنطقة من ديارها وتشتت في مختلف الجهات النائية ، حتى ضرب بهم المثل فقيل : « تفرقوا أيادي سبأ » .

إن هذه الأحداث من وقائع التاريخ المعلومة ، غير أن العالم بها حقاً هو الذي يستخلص منها درساً يجعله لا يصاب بالأشر والبطر حين يتاح له من أسباب الرخاء والسعادة نصيب ، وإنما يعده هبة الله ، فيعيش شاكرًا له - سبحانه وتعالى !!

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٦٠﴾

صَدَّقَ عَلَيْهِمْ : حقق عليهم .

سُلْطَانٍ : تسلط واستيلاء بالوسوسة والإغواء .

إن إبليس وأعوانه يرسمون خطتهم دوماً ضد مصلحة الإنسان . والمطلوب من الإنسان بهذا الصدد أن يعمل على إفشال خطتهم بتجنب نفسه أن تقع ضحية لها ، إلا أن السبئين لم يتمكنوا من إقامة الدليل على هذا الحذر والتعقل والبصيرة ، وإنما ساروا في طريق الغواية والدمار مندفعين وراء الترهيبات الشيطانية ، ولم يكن هناك سوى عددٍ يسير من أتباع الحق الذين نجحوا في هذا الامتحان .

وإن الله - عز وجل - لم يعط الشيطان أو ممثله أي سيطرة فعلية على أحد الناس ، وإنما أعطاه القدرة على الإغواء والوسوسة في النفوس ليس غير ، وذلك لكي يمتحن عباده . والناجح في هذا الامتحان الإلهي هو الذي يستمسك بالحق ويظل ثابتاً عليه بعيداً عن التأثير أو الميل إلى الترهيبات الشيطانية !!

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۚ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۚ ﴾

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ : وزنها من نفع أو ضرر .

ظَهِيرٍ : معين على الخلق والتدبير .

فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ : أزيل عنها الفزع والخوف .

الْحَقُّ : قال القول الحق (الإذن بالشفاعة) .

على الرغم من أن أكثر الناس كانوا - ولا يزالون - يؤمنون بالآخرة في كل

العصور، إلا أن الشيطان مازال ينشر بينهم دائماً عقائد مزعومة تجعلهم غير خائفين ولا حذرين من عقاب الآخرة، ومن بينها هذه العقيدة الفرضية القائلة بأن لبعض الدّوات عند الله مقاماً سامياً يمكنها من أن تشفع لمن تشاء شفاعاة تقبل بالضرورة ولا تُردأبداً! غير أن كل عقيدة من هذا النوع تقدير بخس لألوهية الله وجلاله. فما أغرب هذا الواقع وأكثره إثارة للعجب والدهشة أن الدّوات التي قد استولى عليها من الشعور بعظمة الله ما يملؤها خوفاً وهلعاً دائمين لا ينقطعان، يعتقد عبادها أنها ستكون كافيةً لنجاتهم عند الله عز وجل!!

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ١٦ ﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْصَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٧ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ١٨ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٩ ﴾

أَجْرَمْنَا: اكتسبنا من الرّلات .

يَفْتَحُ بَيْنَنَا: يقضى ويحكم بيننا .

وَهُوَ الْفَتَّاحُ: القاضي والحاكم .

كَلَّا: ارتدعوا عن دعوى الشّركة .

إن الكون عظيم إلى حد لا يمكن تصوّره. وهو إلى جانب ذلك منظّر على حكمة بالغة ومعنوية تدعو إلى الدهشة والإكبار. وإن كوناً هذا شأنه لا بد أن يكون من صنع الله العزيز الحكيم. وإنه ليس بإمكان شخصٍ يدعي جاداً أن خالقه ومالّكه تلك الدّوات الأخرى التي قد افترضها الإنسان قديماً أو حديثاً من دون الله، إذن، فهل ثمة

أحد غير الله الواحد يستحق مقام الكبرياء والجلالة في هذا الكون ؟ كلا!!

الحقيقة هي أن دراسة الكون تبطل كل النظريات المشركة ، فكل عقيدة تتضمن الاعتراف بأي نوع من العظمة لأحد غير الله الواحد لا تلبث أن تتعارض مع طبيعة هذا الكون. وفي هذه الحالة فإن النظرية الصحيحة إنما هي التي تُبنى على أساس وحدانية الله ، وأما النظرية التي تقوم على التسليم بتصرف أي وجود آخر من دون الله الواحد ، فهي نظرية مناقضة لذاتها !

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَخِيرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿

كَافَّةً لِّلنَّاسِ : إلى الناس جميعاً .

كل نبي مارس نشاطه الدعوي على نحو مباشر بين بني قومه وحدهم ، وذلك ما كان ممكناً من الناحية الفعلية وهكذا قام رسول الإسلام - ﷺ - منذراً ومبشراً لقومه مباشرة (الأنعام : ٩٢) ، ولكنه لما كان خاتم الأنبياء والمرسلين قد انتهت به الرسالات السماوية ، صار - حكماً - هو المنذر والمبشر لجميع الشعوب والأمم إلى يوم القيامة . وإنما تقع المسؤولية الآن على عاتق أمته - عليه الصلاة والسلام - أن تؤدي بالنيابة عنه واجب الإنذار والتبشير تجاه الآخرين ، تماماً كما أداه الرسول تجاه مخاطبيه الأولين في عصره . وستعد هذه العملية الدائبة امتداداً لنبوته - ﷺ - ، فالعمل الدعوي الذي تم إنجازه في حياته داخل في دائرة نبوته بصفة مباشرة ، وينضم إليها ما سيؤدي من الأعمال بعد وفاته بصفة غير مباشرة. إن عمل النبي يقتصر دوماً على الإبلاغ وحده ، أما تقرير مصائر الشعوب العملية فهو مما

اختص به الله تعالى نفسه في هذا العالم وفي العالم الآتي بعده على السواء!.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۖ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَخُنْ صَدَدْتَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ۖ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ۖ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ۖ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ ﴾

مَوْقُوفُونَ : محبسون في موقف الحساب .

يَرْجِعُ : يرد .

مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ : صدنا مكرهم بنا فيهما .

أَنْدَادًا : أمثالا من مخلوقاته نعبدها .

وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ : أخفوا الندم أو أظهروه .

الْأَغْلَالَ : القيود تجمع الأيادي إلى الأعناق .

إن إنكار الحقيقة هو الجريمة الكبرى على الإطلاق . وبما أن عاقبة هذه الجريمة لا تظهر في هذه الدنيا ، لا يزال المرء ينكر الحقيقة دونما خوفٍ ولا وجل . ولكن سينقلب حال الناس فجأة إلى حالٍ يبعث على الدهشة والرتاء معاً ، حين ستدهمهم عاقبة إنكار الحق المشئومة في الآخرة .

وسوف تصب الجماهير هناك أغلظ اللعنات على أكابرها الذين كانوا موضوع

فخرها في الحياة الدنيا ، باعتبارهم مسئولين عن ضالتها وضياعها . وسيرد عليهم أولئك الكبراء قائلين : لا تلقوا بالتبعة كلها علينا تخليصاً لأنفسكم من مرارة الشعور بالندم والحسرة . إذ لم نكن نحن الذين أضلوكم ، بل إنما كانت أهواؤكم هي التي انحرفت بكم عن سواء السبيل ، فما وقفتم إلى جانبنا إلا لكون ما ندعو إليه يتفق وأهواءكم ، حيث كنتم تبتغون ديناً يمكن صاحبه من الحصول على شرف التدين بدون تكليف ولا عناء ولا حاجة إلى تغيير النفس وإصلاح العمل . وهو الذي هيأناه لكم فتلقيتموه بالقبول . إذن فأنتم بأيديكم أنفسكم جعلتم في أعناقكم هذه الأغلال التي صنعناها ، وإلا فلم نكن نملك قدرة على أن نطوقها إياكم !!

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝۱۰۱ ۝۱۰۲ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ۝۱۰۳ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝۱۰۴ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُفْرِبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ ۝۱۰۵ ۝۱۰۶ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝۱۰۷ ﴾

مُتْرَفُوهَا : متنعموها وقادة الشر فيها .

وَيَقْدِرُ : يضيق على من يشاء بحكمته .

زُلْفَى : تقريباً .

هُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ : لهم الثواب المضاعف .

فِي الْغُرَفَاتِ : المنازل الرفيعة العالية في الجنة .

مُعَاجِزِينَ : مسابقين طائنين إنهم يفوتوننا .

مُحْضَرُونَ : تحضرهم الزبانية إلى جهنم .

وَيَقْدِرُ لَهُ : يضيق على من يشاء بحكمته .

إن الذين تتوافر لديهم أسباب القوة والثروة ، يرتقون إلى مقام الكبرياء في العالم الراهن، وهذا الشيء يولد في أنفسهم ثقةً كاذبةً. وأمثال هؤلاء حين يتم تخويفهم من الآخرة لا يعطونها أهمية تذكر ؛ إذ يصعب عليهم التأكد من أن الله سيُذْهِمُهم في الآخرة ، مع ما أعطاهم في هذه الدنيا من العز والجاه والكرامة !

وهذه الثقة الكاذبة هي التي كانت - ولا تزال - العقبة الكئود دون إيمان الكبار بدعوة الحق في كل عصرٍ ومصرٍ ، حيث إن كبار العصر إذا احتقروا شيئاً ما ، عاد الصغار هم الآخرون ينظرون إلى ذلك الشيء بعين الاحتقار، وهكذا يحرم كل من العامة والخاصة من تلقي الحق بالقبول .

إن الثروة وأسباب الحياة الدنيا كلها امتحان وليس بإنعامٍ ، فكثرة المال والأسباب الدنيوية لدى أحد الناس ليست علامة على كونه من المقربين ، ولا قلة المال لدى الآخر علامة على أنه من غير المقربين . وإن مقام التقرب والزلفى عند الله إنما يحظى به شخص يقيم الدليل على أنه قد عاش فيما أوتي من مالٍ ومتاعٍ ذاكراً لله ، مراقباً إياه في كل حركاته وسكناته ، وواقفاً بنفسه عند الحدود التي قررها الله سبحانه وتعالى ، فأمثال هؤلاء هم الذين سيعتبرون في الآخرة أهلاً لإنعامات الله الأبدية !

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتُولَاءِ إِنِّي أَكْمَرْتُ كَأَنُؤَا يَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَأَنُؤَا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ ۚ ۝﴾

مُؤْمِنُونَ ﴿١٠٦﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴿

أَنْتَ وَلَيْتَا : أَنْتَ الَّذِي نُوَالِيهِ .

إن الملائكة لا تُرى للناس ، وإنما هم الأنبياء والمرسلون الذين أخبروا الناس بوجود الملائكة. وقد كان المقصود من هذا الإخبار أن يستشعروا عظمة الله وجلاله حق الاستشعار، فيقبلون بكيانهم كله على عبادته وتمجيده سبحانه وتعالى، ولكن الشيطان ألقى في قلوب الناس بطريقة عجيبة أن الحصول على قرب الله مباشرة يكاد يكون أمراً مستحيلاً، لذا ينبغي لهم أن يعبدوا الملائكة ؛ توسلاً بذلك للاقتراب من الله! ومن هنا بدأت تنصب تماثيل منحوتة للملائكة في شتى أنحاء المعمورة ، وراح الناس يقيمون أمامها طقوس العبادة والتقديس . وما عقيدة تعدد الآلهة والإلهات لدى الشعوب الوثنية إلا صورة مشوهة لتأليه الملائكة ، فالملك الذي كان موكلاً بالمطر ، اعتبروه إله المطر، والذي كان موكلاً بالهواء ، حسبوه إلهاً للهواء، وهكذا.. وستتبرأ الملائكة في الآخرة من أمثال هؤلاء العباد وعبادتهم، وبالتالي لن ينالهم هناك من جانب الله ولا من جانب الملائكة نصر ولا عون ، وإنما سيظلون مخذولين دون سندٍ ولا معين إلى الأبد!

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٨﴾ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿١٠٩﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١١٠﴾ ﴾

أَنْتَ وَلِيُّنَا : أنت الذي نواليه .

إِنْكَ مُفْتَرًى : كذب مختلق

مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ : عشر ما أعطيناهم من النعم .

كَانَ نَكِيرٍ : إنكارى عليهم بالتدمير .

لقد جاء القرآن بأدلة وبراهين في منتهى الوضوح والجلال . ومع أن مخاطبيه الأول كانوا عاجزين عن مقاومته بقوة الدليل ، إلا أنهم نجحوا في صدّ الجماهير التابعة لهم عن دعوته ، وإنما كان السر الوحيد في نجاحهم ذاك ، يكمن في أنهم جعلوه "مشبوهاً" في أعين الناس قائلين : إنه لا يتفق مع ما كان عليه أسلافنا الكرام ! وأما ما كان يتميز به القرآن من أدب رفيع وأسلوب بديع معجز لا سبيل إلى إنكاره أو تجاهله ، فقد صرفوا اهتمام الناس عنه زاعمين لهم بأن هذا لا يخرج عن كونه مظهراً من مظاهر البراعة الأدبية وسحر البيان . دون أن يكون له علاقة ما بالوحي الإلهي . إنه قوة قلم وليس بقوة علم الحقيقة !

إنه لمن أغرب تجارب التاريخ البشري أن التعصب كان دوماً - ولا يزال - أعظم سلطاناً على عقول الناس وأشدّ تحكماً في نفوسهم من الدليل والبرهان !! كان على مخاطبي القرآن الكريم ، إذ هم أبوا إلا إنكاره ومعارضته ، أن يلجؤوا إما إلى أدلة عقلية تفنّده ، أو إلى كتاب سماوي يستمدون منه نصاً ينقض دعواه ، غير أنهم كانوا يفتقدون كلا هذين الشئيين معاً ، مضافاً إلى ذلك أنهم كانوا متخلفين جداً عن الشعوب الأخرى حتى في مجال التقدم المادي والرفاهية الدنيوية . وإن أناساً هذا شأنهم لئن تناولوا دعوة الحق بالرفض والإنكار فإنما يرجع سبب ذلك إلى دواعي التعنت والعنجهية ، وليس إلى مقتضى العقل والمنطق !.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ١١٠ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ١١١

من جِنَّةٍ : من جنون .

وقف المعاصرون للنبي - ﷺ - تجاه دعوته موقف الرفض والإنكار . ولكن موقفهم ذاك لم يكن يعتمد على شيء سوى العناد والتعصب . والحقيقة هي أنهم لو فكروا يوماً خالي الأذهان من مشاعر العناد والتعصب - سواء على مستوى فردي أو جماعي - لوجدوا أن رسولهم ليس برجل مجنون ، ولرأوا حياته السابقة التي قضاها بين أظهرهم تشهد بجديته وإخلاصه ولهفته الواهية المؤثرة تدل على أن ما يجري على لسانه هو بعينه ما يختلج في فؤاده ، ولوجدوا في أسلوب كلامه الحكيم شهادةً داخليةً ناطقةً بصدقه وصحته ، وفي كونه لا يطلب من الناس أي أجر أو تعويضٍ عن دعوته وبرهاناً صارخاً على أنه إنما قام بهذا العمل خالصاً لوجه الله ، وليس لأجل أية منفعةٍ أو تجارةٍ ذاتيةٍ ، ففي ضوء التأمل النزيه والتفكير المحايد كان بإمكان القوم أن يدركوا أن لهفته - عليه الصلاة والسلام - ليست بلهفة الجنون ، بل مصدرها أن الخطر الذي نهض لإنذار الآخرين منه ، هو يراه رأي العين يدنو ويقترّب بسرعةٍ والناس عنه غافلون ! ولكن القوم إذا لم يكونوا جادين بشأن دعوة الحق ، فقد عجزوا - وبطبيعة الحال - عن أن يبصروا هذه الحقائق الواضحة الجليّة !!

﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴾ ١١٢ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ ١١٣ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ ١١٤

يَقْذِفُ بِالْحَقِّ : يرمي به الباطل فيدمغه .

لقد أنشئ هذا العالم بالحق ، حيث القوة كلها فيه إلى جانب الحق ، كما أن كل الدلائل هنا تؤيد الحق وتدعمه . وأما الباطل فلا يملك من حيث الحقيقة الواقعة أي قوة ولا دليل أو برهان . وقد كان ينبغي ، والحالة هذه أن يكون الحق هنا هو الغالب السائد ومرفوع الراية دائماً ، وبالمقابل يصير الباطل عديم الوزن فاقد الأهمية مغلوباً على أمره في كل مكان ، ولكن هذا لا يحدث فعلاً ، إذ ليس الحق في هذا العالم من القوة بحيث يمكنه أن يمحو الباطل بحكم قوته الذاتية ، ولا الباطل من التفاهة بحيث لا يتمكن شخص ما من أن يفوز بالمجد والرفعة على أساس منه !

وهذه الواقعة سوف تظهر في أكمل صورها يوم تقوم الساعة ، ولكن الله قد يظهرها ، متى يشاء ، ولو بصورة جزئية في هذه الدنيا أيضاً ، كي تكون عبرة للناس ، ولقد كانت غلبة الإسلام في القرن الأول إظهاراً جزئياً من هذا القبيل ، ومن ثم فحين فتحت مكة ، وانتصر التوحيد على الشرك انتصاراً حاسماً ، كان رسول الله - ﷺ - تردد على لسانه إذ ذاك هذه الآية الكريمة : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ١ .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ٢٠ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِءَ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ٢١ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِءَ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ٢٢ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ٢٣ ﴾

فَرَعُوا : خافوا عند الموت أو البعث .

فَلَا قُوَّةَ : فلا مهرب ولا نجاة من العذاب .

مَكَانٍ قَرِيبٍ : موقف الحساب .

التَّائِبُونَ : تناول الإيمان والتوبة .

مَكَانٍ بَعِيدٍ : هو الآخرة .

وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ : يرجعون بالظنون .

بِأَشْيَاءِهِمْ : بأمثالهم من الكفار .

مُرِيبٍ : موقع في الريبة والقلق .

إن المرء إذ يتناول الحق بالإنكار في العالم الراهن ، لا يتعرض من فوره لمصيره المحتوم . وهذا الوضع يجعله عنيداً جسوراً على إنكار الحق ، فهو لا يعتبر دعوة الحق جديةً بالاهتمام الجدي ، ويذكرها بألفاظٍ مفعمةٍ بالسخرية اللاذعة والازدراء الشديد ، ويرفضها كلما عرضت عليه بعدم الاكتراث واللامبالاة ، ويعلق عليها بأسلوب هزلي عابثٍ كما لو أنها لا تستحق أن يقام لها حساب ما !

على أن الأمر سيتبدل فجأةً غير الأمر ، حين سيتهي نظام هذا العالم الراهن ، وسيرى المرء وقتئذٍ أن ما قد أهمله الإهمال كله ، كان هو الشيء الأهم والأعظم قيمةً في هذا الوجود ، وعندها سيتبخر كل عناده ويتلاشى بطره وكبرياؤه ، وهو يسارع إلى الاعتراف بالحق الذي كان لا يعده خليقاً بأدنى عنايةٍ ولا اهتمام في الحياة الدنيا ، ولكن الوقت الآن سيكون قد فات ، وسيقال له : إن الاعتراف كانت له قيمة في عالم الغيب ، أما في عالم الشهود هذا فلا قيمة للاعتراف البتة !

«الشك المريب» هو الشك الباعث على التردد والحيرة والارتياب ، وهذا الوصف يصوره حالة المنكرين النفسية ، فالحق الذي كان يُعرض عليهم في الدنيا ، كان من حيث اللغة والبيان قوياً لدرجة أنهم لم يكونوا يجدون أنفسهم قادرين على رده بواسطة الدليل

والبرهان ، ولكنهم - مع ذلك - لم يتمكنوا من توطين أنفسهم على قبول هذا الحق ؛
لكونه لا يتفق مع شاكلتهم الفكرية. وقد أصابهم هذا الوضع الثنائي أو المزدوج بنوع
من التذبذب الداخلي المتصل ، إلى أن جاء ملك الموت ، فرفع عن أعينهم الغطاء الذي
كان المفروض أن يرفعه بأيديهم أنفسهم ، إلا أنهم لم يوفقوا إلى ذلك !